الطّريق إلى النيل

أحمد عزالدّين

. . والتقينا على حافة النهرْ،
لم أكن متعبا،
كنت أبحث عن بيرق أتدثر فيه،
كنت أبحث عن نجمة أرتديها،
قلت: أمشي وراء دمى،
قلت: فلأتبع نبض قلبي،
لم أكن مبهما. .
كنت أبحث داخل القمح عن سرٍّ بذرتهِ.
داخل النهر عن سر قوته،
داخل الأرضِ،
عن دفء أمّي.
لم أكن ضائعا. .
كنت منتشرا كالبخار على سطح نهر عظيمٍ،
إسمه النيلْ،
لم أختتم رحلتي معهُ،
غير أن تضاريسهُ،
أسلمتني،
لساقية، درت فيها.
قلت: فلأنتظر أن يرجع الشهداء من ساحة الحربْ،
فلأنتظر، أن يرجع القمح للحقلْ
والعطر للوردْ،
والأمن للقلبْ.

***

كنت أحمل تحت ضلوعي،
بلاداً،
تفتّش عن وجهها.

كنت أحلم تحت غصونٍ،
تعرّت من الورق الغضّ،
وانتشرت في الفضاء الفسيحِ،
وألقت إليّ بأسرارها.
لم أعوّد شفاهي على الصمتِ،
لم أتقن الكلمات التي تستحيل، بيوتاً، وقرى، وبنادقْ
انكسرت على ركبتيكِ
ولم ينكسر في صوتُك ـــــ تُك
احترقت على شفتيكِ
ولم يحترق فيّ حبكْ.
لم أسلم رغيف بلادي،
حينما انهمرت خلف ظهري خيولُ المماليك،
وامتلأت أعيني بالدوارْ..
لم أساوم تراب بلادي،
حين شرّدني الرملُ،
وانطفأت خطوتي في الغبائرْ.
كنت مبتعداً عن بلاد تعلّق مشنقتي،
فوق حبل من الورد والشوكْ،
كنت مغترباً عن بلادٍ،
تفتّش في نبض قلبي،
عن فرحةٍ،
لم تصادرْ..
هل أفتّش في أصغريكِ عن النيلِ،
أم أتبع النيلَ،
مقترباً من حدودكْ؟!

* * *

أيها الوطن المتدفقُ في العرقِ المرّ والدمّ والشمسْ.
أيها الوطن المتمزّق في الملحِ والخبز والارضْ،
لاتكتب الآن اسمي
فوق زهرةِ دفلى،
على حافة النيلْ،
لم اهرّبْ معي غير نبضي،
لم أهرّب من الاسر إلاّ تفاصيلَ حبّي،
لم أكلّم سوى الحَجر الصلدِ،
عن جنّة،
عرضها السماوات والأرضْ،

خبّأتها تحت رمشي!!

* * *

قلت: يا زينب لّما يذهب العمر سدى،
لم نحاورْ رغيف الفرنجةِ.
لما حاور الموتُ، أسوارنا.
لم نخبّىء أصابعنا في العناقْ،
لم نعلّب عواطفنا في صناديق من زبدٍ، أو نحاسْ،
نحن أوضح من عشبٍ اعتاد على حافة نهر النيلِ،
أوضح من دمعة أمٍّ،
في زمان، يعجن الخبز بدمع الأمهات،
إذهبي في الزمن الآتي وعودي بالأغاني،
اذهبي في الزمن الآتي وعودي برياح الثورةِ،
والغضب العربي،

املأي حجرك أطفالا غضوبين، وعودي،
قبل أن ينهش هذا الليل في قلبي،
وتعتاد على وجهي الظلالْ..
.....
كنت مشتاقاً إلى لمستها،
حين مرّت شفرةُ السيف على وجهي،
ومرّ الجوعُ،
في ثوب جنود الاحتلالْ!

* * *

قلت للمارّة المتعبين:
لاتعدّوا أصابعكم قبل يوم الحصادْ،
لا تشدّوا خطاكم بعيدا عن النهرْ،
اجترأنا على الخوفِ، حين غطّى الدمُ الحيّ أعضاءنا،
اجترأنا على الحزنِ لّما ردّد السيف أسماءنا.
قد يطول الطريق إلى مصر...
قد يجمد الدمّ فوق شقوق المحاريثِ
قد تظمأ فينا القوافلُ،
أو تتناسل فينا الصحارى،
وقد يصبح القيد قيدين،
والحزن حزنين،
لكنّ زهرة عبّاد شمسٍ،
على ساعد من جريد النخيل البعيدِ،
تلوّح تحت الغبارْ،
بكفين من ذهب، ورصاص!!